

سيرة الحرب في الشعر العراقي المعاصر

أ.م.د. حذام بدر حسين

العلوم السياسية / جامعة النهرين

Biography of the war in contemporary Iraqi poetry
Dr. Hutham Bader Hussein
Political Science / Nahrain University

من البديهي أن نعرف أن الأدب والفن لا يعالجان الظواهر فهذه ليست مهمتهما، ما يقومان به هو عرض تلك الظواهر على السطح وكشفها للآخرين ، وقد تكون من أولويات الشاعر العراقي وخاصة من شارك في حروب العراق المختلفة أن يحكي سيرته ، وسيرة الحرب التي عاشها كفرد يعيش في هذا الكون الفسيح . ونحن إذ نتأمل تجاربهم الذاتية ليس بوصفها حدثاً شخصياً فحسب وإنما واقعة مشتبكة مع التجربة الاخلاقية والتاريخية التي تُعدُّ جميعاً شهوداً عليها . في هذه الدراسة سنقوم بعرض نماذج من قصائد اجترحت سيرة الحرب ، والتركيز هنا على الحرب العراقية الايرانية أكثر من غيرها من الحروب التي عاشها الشاعر العراقي لكونها حرب طويلة شارك بها الكثير من الشعراء ، وكتبوا عنها سواء قبل سقوط النظام الحاكم آنذاك أم بعد سقوطه ، ولذا سيكون تقسيم الدراسة إلى :أولاً :- سيرة الحرب وتداعيات الغربة ثانياً :- سيرة الحرب الفقد والانكسار **الكلمات المفتاحية: (الحرب ، الشعر العراقي ، الفقد)**

Abstract:

It is obvious that we know that literature and art do not deal with phenomena, this is not their task, what they do is to display these phenomena on the surface and reveal them to others. It may be one of the priorities of the Iraqi poet, especially those who participated in the various wars of Iraq to tell his biography and the biography of his life as an individual living in this spacious universe. As we reflect on their own experiences , not only as a personal event but as an event that is interwoven with the moral and historical experience to which we are all witnesses. In this study we will present examples of poems about the history of the war, and the focus here on the Iraq-Iran war more than other wars experienced by the Iraqi poet because it is a long war involving many poets, and wrote about it before the fall of the regime at the time or after the fall, Divide the study into:

First: – The biography of the war and the repercussions of alienation.

Second: – The biography of the war of loss and refraction.

Key words : (The war , Iraqi poetry , loss)

المقدمة :-

قد يظن البعض أن الشعر صنعة مثل أي صنعة أخرى ، وعلى الرغم من إننا نجزم بأنها صنعة إبداعية لكننا على الأغلب لانعرف وحتى لا يعرف الشعراء أنفسهم (لماذا يكتبون الشعر؟) !! ، قد يتبادر إلى الذهن أن الشعر ربما يجيب عن بعض الأسئلة التي يطرحها الشاعر على نفسه ، إلا أننا موقنون أن الشعر يطرح الأسئلة لكنه لا يجيب عنها ، لذا يكتب الشعراء سيرة الحرب التي عاشوها بمرارة فمنهم من أفقدته الحرب عزيزاً ، ومنهم من فقد جزءاً منه ، سواء أكان هذا الجزء مادياً أم معنوياً .ومن البديهي أن نعرف أن الأدب والفن لا يعالجان الظواهر فهذه ليست مهمتهما، ما يقومان به هو عرض تلك الظواهر على السطح وكشفها للآخرين ، وقد تكون من أولويات الشاعر العراقي وخاصة من شارك في حروب العراق المختلفة أن يحكي سيرته ، وسيرة الحرب التي عاشها كفرد يعيش في هذا الكون الفسيح . ونحن إذ نتأمل تجاربهم الذاتية ليس بوصفها حدثاً شخصياً فحسب وإنما واقعة مشتبكة مع التجربة الاخلاقية والتاريخية التي تُعدُّ جميعاً شهوداً عليها . نستطيع أن نقول أن الشاعر هنا يتعرض لعنف أخلاقي كما يراه (أدورنو) الذي ينجم عن خلل يصيب العلاقة بين الذات وحاضنتها القيمية الاجتماعية يدفع الأخيرة إلى الضغط والإكراه لفرض تعاليمها^١ . يرى فرويد " أن الحروب ترتكز على رغبة غريزية قوية ومتجذرة في نفوس البشر ، تلك هي غريزة الكراهية والتدمير والعدوانية . وهذه غريزة كامنة ويمكن استثارتها بقوة في أي لحظة وبخاصة في أوقات الاضطرابات والتجيش الجماعيين^٢ . كما ويرى أن العدوانية هي غريزة ترتكز على ميول ونوازع متجذرة في الإنسان ولا يمكن التخلص منها لأنها ترتكز على استعداد غريزي بدائي مستقل بذاته، لذا يحاول البشر دائماً تصريف تلك النوازع بقنوات أخرى غير قنوات الحرب ، ويكفي أن نقيها -على حد تعبير فرويد- بالمستوى الذي لا يحتاج به الفرد أن يترجمها بشكل حرب فالحرب هي التصريف العنيف للنوازع العدوانية القاتلة عند البشر^٣ . وإذا كان الأمر كذلك فإن من الطبيعي أن يستطعم فيها البشر القوة والسلطان وسحق الآخر الضعيف ، لكن للشعراء رأي آخر في الحروب ، رأي مخالف تماماً لرأي الدولة التي تحاول شحذ الهمم وتقوية نوازع الشر لتصبح الحروب هي غريزة الدول الأقوى لقتل دول أضعف منها ،

لأن الحرب كما يرى فرويد "تضع نهاية للحياة الإنسانية المفعمة بالأمل ، لأنها تضع الأفراد في مواقف مهينة ، لأنها ترغمهم ضد إرادتهم على قتل أشخاص آخرين ، ولأنها تدمر أشياء مادية ثمينة أنتجتها البشرية" ^٤. وأضمت صوتي لصوت فرويد الذي يقول مستدركا ومستغرباً "إنه لا يسع المرء سوى أن يدهش من أن شئ الحرب لم يُرفض حتى الآن بالإجماع" ^٥. في هذه الدراسة سنقوم بعرض نماذج من قصائد اجترحت سيرة الحرب ، والتركيز هنا على الحرب العراقية الإيرانية أكثر من غيرها من الحروب التي عاشها الشاعر العراقي لكونها حرب طويلة شارك بها الكثير من الشعراء ، وكتبوا عنها سواء قبل سقوط النظام الحاكم آنذاك أم بعد سقوطه ، ولذا سيكون تقسيم الدراسة إلى مبحثين الأول سيتحدث عن سيرة الحرب وتداعيات الغربة أما المبحث الثاني فسننظر به لسيرة الحرب في الفقد والانكسار ، وسنختتم بنقاط نبين بها أهم ما توصلت إليه الدراسة .

أولاً : سيرة الحرب وتداعيات الغربة

في زمن الحرب قد يلجأ المرء إلى حلول بديلة ، منها اللجوء إلى الإبداع ويأتيه عبر طريقين أما المباشرة أو الرمز .وهو ما يعني أن المرء يلجأ إلى قوة ساحرة ، وإلى الخيال الذي به يعيد خلق العالم من حوله ، أو بعبارة أخرى أدق خلق العالم البديل الذي يجمع عناصره من مفردات الواقع من حوله غير أن هذه العناصر نجدتها معبأة برموزها الخاصة ذات الدلالة التي غالباً ما يسعى للبحث بها .وبهذا يبقى المبدع كغيره معاشياً للتناقض ومشاركاً فيه أيضاً (وهو تناقض هائل في تجربة الحرب) ، ما بين الأمل واليأس ، الحب والبغض ، الحياة والموت مع الإقرار بوجود بدائل تكيفية أخرى غير الفن مثل الحلم أو احلام اليقظة و بعض الأعراض النفسية ^٦ . فتجربة الحرب ظلت هاجساً مخيفاً يطارد من عاشها حتى بعد سنوات طويلة من انتهائها وحتى بعد أن أبدلها الشاعر بالغربة ، وأظن الهروب من الوطن واختيار الغربة كان حلاً لمن حفرته الحرب عميقاً في وجدانه ، فهذه مثلاً الشاعرة المغتربة فليحة حسن ، تكاد أشباح الحرب تطاردها في غربتها إذ تقول ^٧ :

وأنا اشرب الشاي في نيوجرسي

مثل فتاة تكتب الشعر عن فتى لم تره من قبل ولو مرة واحدة

تجلس أيامي بكل هذه الخيبة

تعدُّ لحظاتها الهاربة دون أن تملَّ العدَّ

وأنا في يومي العادي هذا

أنتكُرُ أُمي

وكيف كانت

تتحججُ برائحة البصل

تذرف دموعها في المطبخ لغياب أبي

الذي تسلق حياته حرب على حرب

وكلِّما ارتدى (نطاقه) *

تمنى لو أن الحرب مجرد (بسطال) * قديم

يخلعه متى يشاء

ولا يفكر بتصليحه عند اسكافي البلدة

أنتكُرُ أخي

الذي كنَّا نقرأ في رسائله التي لم تصلنا كاملة مرة واحدة:

متى تفهم الحرب بأننا لا نصلح للموت

أنتكُرنا قبل أربعين عاماً

أطفالاً جداً

بملايس وقلوب ملونة

تكفيننا تلويحه بالون كي نغرق في الضحك

أنتكُرُ كلَّ هذا

يوماً وأندربُ على غريتي!

فالشاعرة وبعد أربعين عاماً تعود هنا لتندب حظ طفولتها التي خربتها الحرب ، وهي تستنكر دموع أمها ، وغياب أبيها وأخيها ، وسعادتها المفقودة التي دمرت الحرب معالمها ، فمن ذا الذي يقنع الحرب بأننا لانصلح للموت؟ ، وأن لنا أحلامنا التي نطمح بتحقيقها ، كيف نقنعها وقد تسلفتنا مرة تلو أخرى حتى مللنا من أنفسنا واخترنا الغربية بدلاً للعذاب . يشابهها بالغربة ويتذكر ما خلفته الحرب في النفس والجسد الشاعر فلاح عدوان الذي يستنكر بعد أكثر من ثلاثين عاماً قدمه التي تركها وحيدة على سائر المعركة ، فقد فقدَ هذه القدم في الحرب العراقية الايرانية ، وتحديداً عام ١٩٨٧ ، إذ يقول^١ :

القدم التي تركتها وحيدةً هناك

ماتزال ترفّ بكل أشجانها هنا

كلما تأهّبْتُ للمسير

استوقفها فجرٌ مدججٌ بأصفاد

كل الخطى نضجتُ

الاخطاها هي

منذ زمنين ..

وأنت تستدرج الأسارير دون جدوى

تستطيل مثل غصن تارة ..

وتنتشر مثل ضباب تارة أخرى

الشاعر العراقي وربما من سوء حظه ، مر بتجارب كثيرة طوال مسيرة حياته الشعرية ، فالحروب المتكررة ، والصدمات قوية الوقع ، تعمق الجراح وتستفز الذاكرة ، ولسنوات كثيرة ابتعد الشاعر فلاح عدوان عن الحديث عن اصابته ، ما يؤكد ذلك القاص والروائي (محمد علوان) في لقاء تلفزيوني له^٢ ، لكنه يعود بعد سنوات ليستنكر تلك الحرب وما خلفته ، يقول في القصيدة نفسها :

إصغ ليديك الملوحتين

استمع للإيقاعات الشديدة الخجل

دون إن تلتفت

إلى الليالي المسفوحة

إلى السنوات المعبأة بالرحيل

انصتْ ، ولو مرة واحدة

للخطى الناقصة

لقدمك التي

تركتها فوق ذلك التل

مندهشةً ..

وحائرةً هناك .

إن ارتباط مفهوم الايقاع الداخلي في قصيدة النثر يستجيب للحدثة الشعرية وينقل بنا من الشفوية إلى الكتابة الشعرية - على حد تعبير حاتم الصكر - وهذا بالضبط ما نلمسه في قصيدة فلاح عدوان ، فالقصيدة اعتمدت على الإيقاع الداخلي في موسيقاها الشعرية فضلاً عن السرد والمشاهد الشعرية التي لا تقدم لنا وقائع وتواريخ محدده وإنما تقدم لنا مشاهد شعرية وسردية دالة على محطات مر بها الشاعر في تاريخه الشخصي، كما وإنمازت بحلقة شعرية أجدها بكثرة في قصائد عدوان المتنوعة فهو يعمد إلى نوع مختلف من التدوير الشعري فنراه يختم قصائده غالباً بمفردات تقارب الجملة التي افتتح بها قصيدته ، فإذا كانت جملته التي افتتح بها القصيدة هي (القدم التي تركتها وحيدةً هناك) فتكون جملته التي يختم بها القصيدة هي (لقدمك التي تركتها فوق ذلك التل مندهشةً ..وحائرةً هناك) .

وإذا بحثنا في قصائد الشاعر الأخرى التي تناول بها الحرب وهي قليلة ، نرصد قصيدته التي تحمل عنوان (من سيرة الكائن - ٢) إذ يقول^٣

ما عاد نضراً كعزلته
ولا طرباً مثل صواب
كثيراً ما تكتّم على انكساراته
كثيراً ما أمحّت ملامحه أمام صلف الأقدار
في خضم المطاردة
ابتكر غيبوبةً صالحةً للتنفس ، والأكل
حتى أنه زوّدها بقصبة هلامية ..
ولهاة لزجة للإمساك بالشهقات
توارى بين حشود دقائق فزعة
بينما سطع بعينه ومضّ
أعقبه تطاير أحلام ، وأشلاء صرخات
هرول دون أن يشعر بقدمه ..
وصيحته المبتورتين
بدا مثل بصيص جريحٍ
فقد عصاه
في لحظة الإتكاء
إهتزاز ..
تمايل ..
إتزان ..
بهذا السقوط المؤجل
بدأ تاريخ
غير مؤكدٍ
للميلان !!

يخلق الشاعر لنا في هذه القصيدة تنويعات شعرية مميزة فقد اهتم كثيرا بالصور البصرية والدرامية التي ربط بها سياق السرد ، كما أن العنوان كان عتبة نصية كاشفة ودالة فقد صرح منذ بداية القصيدة أنه يتحدث عن سيرته الشخصية ، الا أنها رؤيا انسانية شاملة لكل ما تتركه الحرب من تبعات ، فقد توالى اللقطات تباعاً لتبني مجموعة من المشاهد البصرية و النفسية المتناسلة المشحونة بشعرية عالية لتتحقق لنا الصدمة التي بها كسر الشاعر افق توقع القارئ فبين الاتكاء والاهتزاز والتمايل والاتزان تكوّن تاريخ غير مؤكد للميلان ، هذا فضلا عن أن الشاعر قدم قصيدته بلغة متزنة هادئة ومسترخية على الرغم من فداحة الحدث . وربما يعود هذا للزمن الطويل الذي مر منذ وقوع الحدث فإن التصاق التجربة الحربية بالزمن الحاضر أو الماضي القريب ، ووقوع المبدع في دائرة الجماعة المتحمسة وأيضا سطوة مؤسسات الدولة عليه ، يجعل من التعبير عن مسالك وأغوار التجربة محدوداً بالأفكار التي تقبلها الجماعة أيضا ، وغالبا ما يكون الإبداع معبراً عن رأي الجماعة بل وإذكاء لما هو شائع بينها ، ونادراً ما يكون العكس ، بينما الكتابات التي تباعدت المدة الزمنية فيها بين التجربة وكتابتها ، تتسم بارتفاع المستوى الفني على حساب الجانب الحماسي أو اللافتي^١ . ويكاد هذا ينطبق على هذه القصيدة وجل كتابات السيرة الحربية لدى إدياء العراق الذين كتبوا عن سيرتهم شعراً ونثراً بعد العام ٢٠٠٣ .

ثانياً : سيرة الحرب الفقد والانكسار

يرى فرويد أن هناك تغيير في السلوك يمر به المرء حيال الموت الذي تزرعه الحرب . والحضارة بكل تجلياتها قائمة على نوع من تقديس الأرواح ، وتمتد جذور هذا السلوك القائم على الخشية والاحترام إلى تجربة فقدان المرء أشخاصاً مقربين إليه . وهكذا تخصّص الحضارة مكانة

خاصة لما نسعى جميعاً إلى طرده من أذهاننا : واقع موتنا نحن. ويدمر نشوب الحرب هذه المكانة ويعود بنا إلى حالتنا البدائية، تلك التي نكر فيها حقيقة فئتنا وننشد موت أعدائنا. فالجرب إذن "تنزع الطبقات التي تغطيها بها الحضارة، ولا تسمح إلا لنمو الإنسان البدائي في داخلنا. ونجدها تفرض علينا مجدداً سلوك بطل يأبى التسليم بإمكان موته، وتُظهر لنا الأعراب بحلّة أعداء لا بدّ من القضاء عليهم أو تمّني موتهم، وتوصينا بالحفاظ على هويتنا عندما نشهد موت المقرّبين إلينا"^{١٢}. ويضيف : "ألا ينبغي التسليم بأن سلوكنا حيال الموت، كما تفرضه علينا حياتنا الحضارية حالياً، يتخطى قدراتنا النفسية، حتى يجب علينا غض الطرف عنه والانحناء أمام الحقيقة؟"^{١٣}.

وإذا كان هذا ما يراه فرويد فإن بعض مشعلو الفتن والحروب يرون في الحرب مغامرة يختبرون فيها معاني الرجولة ، وحب الوطن ، والتقنيات العسكرية الجديدة كما يجب أن يشيعوا طابع القدسية فيها ليقوموا بخداع الآخرين . وهذه الخدعة انطلت على الكثير من الشباب الذين ظنوا أن في الحرب خلاصهم وفيها الكثير من معاني النجاة ، ولكن بعض الشعراء عرفوا أنها حروب عبثية لذا أدانوها بقلوبهم ولم تستطع السنتمهم ذلك لأن الحكومات الشمولية الدكتاتورية تمجد الحرب وتقتل كل من يقول عكس ما تفرضه على العقول. والحرب العراقية الايرانية شاهد حي على هذا ، فقد مجد النظام السابق الحرب واعطاها طابع القدسية وأمر الكثير من الشعراء بكتابة قصائد تعبوية تحت على تمجيد الحرب والفخر بالموت ، لكن هناك من الشعراء لم ينصاعوا لذلك وكتبوا بالصد من هذه الحرب ومنهم الشاعر (طالب عبد العزيز) الذي رثى اخوه الذي مات في حرب الثمانينيات بقصيده أسماها (حرب أخي) ، وما يثير الاستغراب فعلا أن القصيدة لم تلقى الرفض من الرقيب الذي كانت تضعه الدولة للحيلولة دون نشر أي شيء تراه غير متوافق معها ، على الرغم من أن الشاعر يعلن وبقوة ليس رفضه للحرب فقط وإنما تأكيداً وبإصرار أن هذه الحرب كانت عبثية والدليل على ذلك عنوان القصيدة ،فهو كأنما يريد القول أن هذه الحرب كانت حرب أخي لذا فقد خسر حياته بسببها بينما رجع الآخرون إلى حياتهم الطبيعية لأنها لم تكن حربهم ، وهذه سخريّة مريرة يمررها الشاعر حتى على رقباء الطبع في تلك الحقبة الصعبة والقاسية من حياة العراق ، يقول^{١٤} :

قم أخي لقد انتهت الحرب

وأخذوا دبابتك إلى مصهر الحديد

لكن بندقيتك مازالت على الجبل

وها قد أتت الرمال على بسالتك أخيراً.

الفلاح يزرع حقله الذي سقطت فيه

لأن الأشجار التي زرعتها أنت

ماتت أيضاً

أما الجبل الذي أليت

ألا تبارحه حياً

تدقق الأعداء إلى قمته

وأنزلوا من ثلوجه

رايتك الصابرة

من أكثر الخيبات التي يمر بها الإنسان أن يرى عزيزاً له يموت بلا سبب حقيقي ، فها هي الحرب تنتهي وكأنها لم تكن بينما الآلاف ماتوا بلا معنى ، أمهات فقدت أبنائهن ، زوجات ترمطن ، أطفال تيتمو ، وأباء وأخوه سلبوا من أحبائهم بلا معنى ، فالفرحة بانتهاء الحرب لم تتحقق إلا لمن خرج منها بلا خسائر ، ولكن من خسر عزيزاً يصاب بخيبة كبيرة وهو يرى أنها لم تكن سوى لعبة وأن خسارته كانت بلا معنى ، وواحد منهم كان الشاعر طالب عبد العزيز، فقصيدته هذه مرثية لأخيه ،يناديه بأن يقوم لأن الحرب انتهت وكُلّ رجوع إلى عمله الأول وها هو الفلاح يزرع أرضه التي مات فيها بلا طائل بينما أشجارك التي كنت تزرعها ماتت لأنك لم تعتني بها والجبل الذي لم ترض أن تتركه إلا وانت جثة هامدة ، رجع الى الاعداء وأنزلوا من قمته رايتك الصابرة ، يقول في القصيدة نفسها :

في كل مرة

قبل سقوطك الأخير

يسلب الأعداء بدلتك

وحرابك وبهاءك

ومهما كنت ميتا يا أخي

كانوا يفتنون جثتك بالرصاص

وحتى في ميبتك الأخيرة

حين كان الدود يسقط من محجريك

وفتحة فؤاد الكبير

كانوا يظنونك تكذب

وأنت ما زلت كابوسهم المستمر

يستمر الشاعر بحديثه مع أخيه الميت ليصور لنا مقدار الأسى الذي يمر به المقاتل في الحرب أي حرب كانت ، فهو يموت مرة تلو أخرى مع كل معركة ومع تقادم الزمن عليه ، يسلبه الآخرون بهاءه وحيويته ، يسلبون منه إحساسه بالحياة لذا نراه يقول (في كل مرة قبل سقوطك الأخير) و (في ميبتك الأخيرة) ، وحتى عندما أصبحت ميتاً فعلاً كنت كابوسهم المستمر لذا كانوا يفتنون جثتك بالرصاص ليتأكدوا من موتك ، يقول في القصيدة نفسها :

قم يا أخي لقد انتهت الحرب

وها قد تسور الأطفال الحديقة

والكرات التي كنت تراها

من نار ومعدن،

بردت ، ها هم يتقاذفونها

بين اقدامهم

إلا الكرة التي احالت جسدك رفيفا.

نحن هنا في القرية

بلا حرب ولا اعداء

نحن نسينا بعض جراحننا

وقد نطمع بعض خناجرنا بغضائنا

القديمة

لكن جل ما نريده

أن لا تنبح كلابنا إلا ضيفا

هي عودة للحياة ، ودعوة للسلام (لا تنبح كلابنا إلا ضيفا) فما عدنا نريد الحرب وأطفالنا عادت للعب بالكرات ، ليس كرات الموت والدمار التي كنت تراها ، وإنما كرات لعب فهو هنا يعمد إلى المزوجة بين الموت والحياة وأنواع الكرة في كل مرة ، وهو يؤكد مرة أخرى مخاطبا أخاه (أن الحرب التي خضتها، الحرب التي قُلت فيها ،حربك!! لم تكن سوى عبث في عبث) لكنه يرمز لكل ذلك دون أن يصرح به علانية فهو يجعل الكلمات تبوح بمكنونات صدره دون أن يقولها وهذا التلويح يجيده طالب عبد العزيز بمهارة ، يقول في القصيدة نفسها :

أمي مازالت في فراشها

أحدثها عن طولك وعضدك القوية

ويطربها كثيراً

أنهم لم يجدوا حذاءً على مقاسك

كانت تسألني

على أي جنببك كنت تنام

اوحتني أن أقول لها

نقول دائماً أن الشعر يوحى ولا يفصل ، لكنه هنا فصل بنقل الحدث كما هو إلى القارئ ، والكتابة عن الحرب كما الكتابة عن الحب جمالها يكمن في التفاصيل الدقيقة وربما كانت هذه الحكاية المحزنة واحدة من جماليات الكتابة عن سيرة الحرب ، فالامهات اللواتي فقدن أولادهن أقعدهن المرض ، وسلواهن الحديث عن الابناء ، قوته وكبر قدمه . كتب مارتيني في أول بيان لمدرسته المستقبلية" (١٩٠٩) . الركام الخليط من المشاعر والفوضوية يعبر عن مزاج رؤيوي للتوقع المحموم ، الذي تلبس كل عقول الشبيبة الأوربية قبل الحرب ، عقول المثقفين والفنانين بصورة خاصة ، المنتسبين للطبقة الوسطى ، اولئك الذين لم يكونوا طرفاً فاعلاً في الأحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية . اندفعوا إلى فكرة الحرب بحماس وإلى فعل الحرب أيضاً ، متطوعين حتى قبل أن يُستدعوا . أكثر المواهب التمتعاً قُتلت ، والأخرى لم ينطفئ حماسها حتى داخل الرعب . ووسط المذابح الجماعية فضل كثيرون المشاركة في هذا القدر . لم فعلوا ذلك؟ أعن معرفة؟ الشاعر الايرلندي توماس كيتل (١٨٨٠-١٩١٦) يظن ذلك إذ يقول :

نعرف أننا حمقى ، مع الموت الأحق الآن ،
نموت لا من أجل علم ، أو ملك ، أو إمبراطور ،
ولكن من أجل خُلم وُلد تحت سقيفة راج ،
من أجل كتاب الفقراء المقدس^{١٥} .

وإذا كان الشاعر الأوربي يرى ذلك فان الشاعر العراقي يخالفه الرأي ، فنرصد هنا قصيدة للشاعر (سلام دواي) بعنوان (جربوع) يقول فيها^{١٦} :

أيتها الحرب
صار علي أن اعترف الآن
بأنني قد خنتك
دخلت إليك
بمائة وعشرين إطلاقه
وخرجت بنفس العدد
وسبطانتي في زيتها باردة
مرة برز إلينا جربوع أخضر
كان كبيراً ولسانه يتلمظ
قال الضابط عليك به فأبيت
أنثاه كانت خلفه
خضراء مثله وجميلة
ولها غرة بلون الرمل
البريق الذي يتكسر في عينيها
أشعرتني بالألم
بادر أحد وأطلق على الجربوع النار
قمت لأدفنه وأضع على قبره راية الدولة
لولا أنهم اتهموني بالسخرية
يومها كانت الدولة
راية وطبل
وكان الرصاص يقتل الناس والجربوع

من الملاحظ أن هذه القصيدة ذات المنحى السردى تستحضر صور الماضي ليواجه بها الشاعر حجم الخراب الذي أصاب الإنسان في الحرب من خلال التركيز على أمر القائد بقتل الجربوع ، وبما أن الشاعر يرفض قتله خاصة بعد أن يرى زوجته التي تمشي خلفه ، وأظن أن المشهد كله رمز لكل إنسان بسيط ممكن أن تضعه الأقدار في مواجهة الرصاص ، فالجربوع كناية عنا نحن البشر المسالمون الذين لا نرغب بأذية أياً كان والشاعر من ضمن هذه الفصيلة ، يتساءل إنشائين في رسائله مع فرويد في كتاب (لماذا الحرب؟) لماذا نحن (أي هو وفرويد) لا يفضلون الحرب ويبحثون عن السبل لإيقافها ويشاركهم بالتأكيد ملايين البشر ، فيجيب لأننا إنسانيون ، والتحضر والمدنية هي من تجعل من الناس يتمتعون بالإنسانية ويرفضون قتل أي كان ، وهذا ما يؤكد الشاعر في هذه القصيدة فهو يصر على أنه لم يطلق أي رصاصة من بندقيته التي امتلكها بوصفه جندياً في معركة ، لكنه بقي في قرارة نفسه ذاك الشاعر الذي يرفض تمجيد القتل ، لكن بالتأكيد هناك من يطلق النار حتى على جربوع مسالم ، لأن الدولة هي من تريد ذلك ، من هنا نعرف إن الإبداع الجيد في حاجة إلى هضم وتمثيل للتجارب على العموم وليس الانفعال بالتجربة فقط ، إذ تبدو تجربة الحرب أحياناً أشد هولاً من الخيالات الجامحة ، وقد يفيد المرء التذكر الاسترجاعي لمفردات الواقع ، بينما يبقى الإبداع الذي يرتكز على الخيال هو الأهم والأكثر فنية ، من هنا كان الشاعر يعمد إلى وضع خيوط جديدة لقصته التي إنمازت بالبساطة والوضوح لكنها لا تخلوا من رمز تتاغم مع لهجة الإدانة لنمط التفكير اللإنساني الذي تضعه الدولة آنذاك .

يرى الكاتب عدنان حسين قاسم في كتابه (التصوير الشعري) أن الرمز الجزئي المفرد "لا يعني أن تنوب كلمة مكان أخرى و تكون بديلة عنها ، ولكنه أسلوب فني تكتسب فيه الكلمة المفردة قيمة رمزية من خلال تفاعلها مع ما ترمز إليه ، فيؤدي ذلك إلى إيحاءاتها وإثارتها لكثير من المعاني الدفينة ، وخلقها لموقف رمزي يتضافر مع بقية عناصر القصيدة لبنائها بناءً مكتملاً . وهو يقوم على الإيحاءات التي تبثها الصورة الجزئية ، أو الكلمات المشعة ذات الارتباط بأحداث تاريخية ، أو تجارب عاطفية ، أو مواقف اجتماعية ، أو ظواهر طبيعية ، أو أماكن ذات مدلول شعوري خاص . فالشاعر في تعامله مع هذه الأشياء يرتقي بمدلولها المتواضع عليه إلى مدلولها الرمزي" ^{١٧} . وهذا ما نستخلصه من قصائد الشاعر (عقيل علي) المُرَقَّة بالرمزية مثل قصيدة ترنيمة الليل ، يقول فيها^{١٨}:

أنام في فراشي

طائرا ممتلئا بالدم

أسمع الرجال يكررون التحايا .

-إنك تظن أشياء كثيرا أيها الصديق-

وفي الصباح يغادرون وكأنهم يريدون هذا

فأصغ

صوتي :٤٥٤٨٣٦٦

هل تسمع؟

أنا لا أريد هذا .

نحن لا نلوم عقيل علي أو شعراء تلك المرحلة من استخدام نوع من الإبهام الشعري والتعمية والرمز ، كونهم عاشوا في بيئة تحتاج لكل هذا الإبهام ، ولعل الرمزية ومن خلال ما في قصائدها من انتقالات نفسية مفاجئة بقصد إثارة عنصر المفاجأة ورغبة في تعزيز الجانب الإيحائي الذي تتخذه كأحد منطقاتها ، قد سببت نوعاً من التشتت والإبهام في القصيدة الحديثة التي نراها صدى للذات الشعرية التي خربتها أمور عدة ، كان في مقدمتها الحرب ، فالشاعر هنا يرفض الحرب ولا يريد المشاركة فيها لكنه عاجز عن التصريح لذا يعمد إلى نوع من الرمزية العالية ، فكي نعرف أنه أصبح جندياً في المعركة يشير لنا بقرينة هي رقمه العسكري ، الذي يسميه صوتي ويصف نفسه بالطائر الممتلئ بالدم لبيان عجزه وانكسار روحه التي دمرتها الحرب لذا نراه يقول (أنا لا أريد هذا) ، معانٍ جملة وراء تلك القصيدة القصيرة ، ولكن لأن الشاعر لا يستطيع التصريح والبوح ولا يمتلك الحرية على إبراز رفضه لكل ذلك عمَدَ إلى الإيحاء ليصل إلى ما يريد بأنه ببساطة لا يريد وعلى الرغم مما ذكرنا سابقاً من عجز الشاعر عن القول والتصريح إلا أننا نرصد له قصيدة أخرى بعنوان (عند بلادي) نراه فيها أكثر جرأة في البوح بما تضمه تلك البلاد إذ يقول ^{١٩} :

عند بلادي ما من مجانية في قول الألم ،

الألم

الذي طوال الليل يغرد حتى يأتيه الفجر
من أجل الكد الكثير ،
الذي يرقب بأسى عيوننا يحضنها الغبار
ويرقب بفرح يداً تصنع رغيغ المنتصر
عند بلادي ما من مشيئة غافية .
عند بلادي

لو خرجت فهذا لا يعني إنني لن أعود
روحي التي طالما قبضت عليها لن تجد أجوبة لأسئلتها
داخل طلع النخل ثمة مضمار للقبول
وثمة أن تبقى وحيداً لأجل قبلة وحيدة
تقبل أضحيتها
عند بلادي بلاد كلنا زوارها
وكلنا عابرون

لعقيل علي حياة ملتبسة ، كرسها الوضع الملتبس الذي عاشه العراق لذا فقد أكتفى عقيل علي بنصب فخاخ الشعر - على حد تعبير كاظم جهاد - وبعثرة المعنى ، لنقل مشاعره النفسية المتأزمة والمتوترة التي تقعد بريقها وتأثيرها فيما لو نقلت بشكل مباشر .
فهو يحاول رسم صورة القمع الذي يمارس على الإنسان والانكسار الروحي الذي يعيشه في وصف بلاده التي لو خرج منها فهذا لا يعني أنه لن يعود إليها ، وهي إشارة لهروبه من العراق عام ١٩٧١ إلى الكويت ، وقطعه الصحراء الفاصلة بصحبة عامل مثله ، وبعد أن بلغ الاثنان مشارف الكويت تلتفتها دورية كانت بانتظارهما هناك ، وأعيدا إلى العراق مطرودين ، بعد ايقافهما أياما في مخفر للشرطة^{٢٠} ، لانعرف ما نصف به شعر عقيل علي هل هو انكسار أم تمرد أم خوف ، لكننا ايقنا أن شعره خليط من هذا كله ، وأن الصورة الذهنية التي يحاول الشاعر إبرازها لا يمكن أن تتحقق الا بخيال منتجها "فالشعر ينطوي - شأن الفن بعامه - على خاصية حسية بالضرورة ، ما دامت مدركات الحس هي المادة الخام التي يبني بها الشاعر تجاربه"^{٢١} ، وفي القصيدة كم هائل من الرموز ، رموز تحكي صراعه مع الألم ومع الحياة ، فما بين هذه البلاد التي تمنعك حتى من صيحة الألم ، وبين حياة الكد القاسية ، هناك سجن روح الشاعر حتى صارت لا تجد أجوبة لأسئلتها ، وإذ تضئ إشارات الشاعر وتأويلاته الكثير من مكامن الغموض التي يمكن أن تقود القارئ لسبر غور هذه التجربة ، أجده يعمن بحالة اليأس التي صارت جزءاً لا يتجزأ من حياته في تلك البلاد التي كلنا زوار بها وكلنا عابرون .

يعود في قصيدة أخرى بعنوان (إنها بلادي) ليكرر ذات اللازمة التي هي عنوان القصيدة نفسه ، فإذا كان في القصيدة السابقة يكرر (عند بلادي) فهذه القصيدة يكرر (إنها بلادي) إذ يقول^{٢٢}:

إنها بلادي التي صبرها صبر الفقير الذي يناضل
من أجل غبطته ... وخيبته أيضا
وأيضا من أجل العمر الذي يتعجل مراميه.
إنها بلادي

يا بلاداً طعمها المياه المسودة ، ولها حرية أخرى
يا بلاداً تحرق في فيض من غادروا
وترتجف من قسم عاشق.

يختزل هذا المقطع علاقة الشاعر بوطنه ، تلك العلاقة القائمة على الخيبات المتكررة ، وعلى انكسار روحه وجسده الذي خلف مسحة عارمة من اليأس والحزن ، فهو يناضل من أجل غبطة ويصبر من أجلها أيضا ، البلاد التي تقدر الموت ، وتخاف من العشق . وأجده يتنبأ على الرغم من أنه ينكر ذلك حين يقول بالقصيدة نفسها :
يا بلاداً أريد أن أقول لها :

- لقد رأينا الدم

وليس هذا بتكهن

سيأتي الدم

سيأتي الدم

سيأتي

فأي حظ عاثر هذا الذي به تحققت نبوءة الشاعر ، فقد كتب الشاعر هذه القصيدة في عام ١٩٩٦ ، لكنه ينتبأ بمزيد من الدم ، وقد حصل فعلا ، وعلى الرغم من هذه المشاعر المتضاربة التي يبديها الشاعر تجاه بلده ، إلا أننا نلمس الإفتتان به في شكل من أشكال التوحد والتأمل وطرح الأسئلة الكونية المستفزة ، وهو بكل ذلك ظل وفياً ومحافظاً على قصيدة النثر مثله مثل أكثر شعراء جيله ويرى الناقد فاضل ثامر ، " إن الانفجار المفاجئ لقصيدة النثر التي كانت ذريعة الشعراء للتملص من إملاءات النظام السابق بذريعة أن هذه القصيدة لا تصلح لان تكون تعبوية بسبب شكلانيته وغموضها ورمزيته المفرطة ، وربما كان اختيار شعراء قصيدة النثر العفوي آنذاك عددا من المقاهي الشعبية والثقافية مثل مقهى حسن عجمي ومقهى الشابندر ، حاضنة غير رسمية لهم بعيدة عن المنتديات والمراكز الرسمية وبعيدة جزئياً عن أعين الرقباء والعسس والمخبرين آنذاك أمر له دلالاته"^{٢٣}. فالقصيدة توجي لنا بعاطفتين متناقضتين ظاهريا ، لكنهما في الحقيقة يتيمان بعضهما فمن جهة هو يأسف على انكسار بلده وطغيان حكامه وهو في الوقت ذاته يتأمل جمال هذا البلد وروعته ، وربما يتأتى هذا الجمال من حطامه النبيل على حد تعبيره ، الجمال الموقت والعابر والمنذور للاندثار والتلاشي بعد كل حرب ، يقول في القصيدة نفسها :

يا بلاداً واسيت حطامها النبيل

وحفرت في المآسي هجرتها

نادرة أنت

في سمائك وفي أرضك ، وكذا في شمسك الجائعة

يا بلادا أريد ان اقول لها :

-أعطي الشاعر سر الحقيقة

لأنك سر الحقيقة ، أعطي

لأنك المحبوسة في لعنتك وفي غفرانك

أعطي

يا بلاداً ترتعش من عطشها ، حيث كل قبلة

تتحني على شظاياها

بلادي التي تسير معي في الخطوة ذاتها

في حياتي التي اكتبتها

يرتبط الشاعر غالبا بنصه الذي يمثل صدى لروحه التي امتزجت وتجانست مع الأرواح الأخرى والموجودات ولذا فلا غرابة أن يمتزج الشاعر ببلده حتى يؤنسونه ويطلب منه سر الحقيقة ، وهو يمازج بين الموت والحياة بين القبلة والشظايا ، في صور تتوالد الواحدة من الأخرى ليعبر بها عن عوالمه النفسية المتداخلة والمتشابكة ، والمتشارك بها مع كل ابناء بلده لذا فهو يحدثهم بالصمت الذي هو كلامهم اللامتناهي .

إنها بلادي

بلاد الذين أتحدث اليهم بكل ما أقوله

أهلي وشركائي فيا للألم !

إنها بلادي

بلاد الصمت . الذي هو كلامنا اللامتناهي ...

نستطيع أن نوجز أهم ما توصلت إليه الدراسة بالنقاط الآتية :

- ١- الحرب غالباً تضع نهاية للحياة الإنسانية المفعمة بالأمل ، وتضع الأفراد في مواقف مهينة ، وترغمهم ضد إرادتهم على قتل أشخاص آخرين ، وتدمر أشياء مادية ثمينة أنتجتها البشرية لذا فقد رفض الشعراء الحرب ، أدانوها وكتبوا سيرتها المفعمة بالألم .
- ٢- تجربة الحرب ظلت هاجساً مخيفاً يطارد من عاشها حتى بعد سنوات طويلة من انتهائها والشاعر العراقي وربما من سوء حظه ، مر بتجارب كثيرة طوال مسيرة حياته الشعرية ومنها تجربة الحرب ، التي عمقت جراحه واستفزت ذاكرته.
- ٣- كان خيار الغربة حلاً لمن حفرت الحرب عميقاً في وجدانه لكنه لم يكن الخيار الأمثل فقد ظل الشاعر المغترب وبعد سنوات طويلة يكتب سيرة الحرب وتداعيات الخراب النفسي والجسدي الذي عاشه .
- ٤- مجد النظام السابق الحرب واعطاها طابع القدسية وأمر الكثير من الشعراء بكتابة قصائد تعبوية تحت على تمجيد الحرب والفخر بالموت ، لكن هناك من الشعراء من لم ينصاعوا لذلك وكتبوا بالصد من هذه الحرب.
- ٥- الكتابة عن الحرب كما الكتابة عن الحب جمالها يكمن في التفاصيل الدقيقة وربما كانت تفاصيل الحكايات المحزنة واحدة من جماليات الكتابة عن سيرة الحرب.

الهوامش:

- ١ . الذات تصف نفسها ، جوديث بتلر ، ترجمة: فلاح رحيم ، التنوير للطباعة والنشر ، ٢٠١٤ : ص ٦ .
- ٢ . لماذا الحرب ؟ سيغmond فرويد - ألبيرت أنشتاين ، تقديم وتحرير : د.نادر كاظم ، ترجمة: جهاد الشيبيني ، تكوين،الرافدين ، ص٨.
- ٣ . ينظر : لماذا الحرب ؟ : ص ١٠ .
- ٤ . المصدر نفسه : ص ٥٦ .
- ٥ . المصدر نفسه : ص ٥٧ .
- ٦ . ينظر : أدب الحرب (الحرب الفكرة التجربة الابداع) هيئة الكتاب المصرية ، القاهرة ١٩٩٥ : ٥٠-٥١ .
- ٧ . فليحة حسن ، <https://www.alnaked-aliraqi.net/article/57910.php> ،
- ٨ . جريدة المدى ، العدد (٣٧٨٥) السنة الرابعة عشر
- ٩ . لقاء تلفزيوني مع الروائي محمد علوان <https://youtu.be/ZYuz3wDBVvE>
- ١٠ . جريدة الصباح ، جريدة يومية تصدر عن شبكة الإعلام العراقية ، العدد ٢٤٥١
- ١١ . ينظر : أدب الحرب (الحرب الفكرة التجربة الابداع) هيئة الكتاب المصرية ، القاهرة ١٩٩٥ : ٥٣-٥٤ .
- ١٢ تأملات معاصرة في الحرب والموت ، بيتر بروك ، ترجمة: جولي مراد http://www.maaber.org/issue_july04/spotlights1.htm
- ١٣ المصدر نفسه .
- ١٤ تاريخ الاسى ، طالب عبد العزيز ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٩٤
- ١٥ تهافت الستينيين ، أهواء المتقف ومخاطر الفعل السياسي ، فوزي كريم ، مؤسسة المدى للطباعة والنشر ، ٢٠٠٦ : ص ٥٧ .
- ١٦ شاعرية سلام دواي ، كاظم غيلان ، <http://24-news.org/news-22.html> ،
- ١٧ التصوير الشعري ، التجربة الشعرية أدوات رسم الصورة الشعرية ، عدنان حسين قاسم ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، ١٩٨٠ : ص ١٤٨ .
- ١٨ . عقيل علي ، جنائن آدم وقصائد أخرى ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٩ : ص ٣٨ .
- ١٩ . المصدر نفسه : ص ٢٤٤-٢٤٥ .
- ٢٠ . ينظر ، المصدر نفسه ، المقدمة : ص ٦ .
- ٢١ . مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ، جابر احمد عصفور ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٨٢ : ص ٢١٨ .
- ٢٢ . عقيل علي ، جنائن آدم وقصائد أخرى ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٩ : ص ٢٤٦-٢٤٩ .
- ٢٣ . رهنات شعراء الحداثة ، فاضل ثامر ، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ، ٢٠١٩ : ص ٤٣٠ .